التربيـــة الصوفية فى الحكم العطائية

للاستاذ السيد محمد عبد الشافعى

يقول ابن عطاء الله

> (لا يشككنك فى الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه ، لئلا يكون ذلك قدحا فى بصيرتك ، وخمادا لنور سريرتك)

هذه حكمة جليلة أعم مما قبلها. يحذرنا فيها المؤلف رضى الله تبارك وتعالى عنه من الوقوع فى الشك ، لما يترتب عليه من نتائج الشك والشك هو عدم اليقين ، لشبهة قامت بنفس المتردد . فالحق سبحانه وتعالى أمرنا بالدعاء فى قوله « ادعونى » ووعدنا بالاجابة فى قوله أستجب لكم » ولاشك أن هذه الاجابة التى وعدنا الحق بها إجابة مطلقة ، لم تتقيد بصورة ولم تتعين بوقت ذلك لأن حكمه الحق سبحانه وتعالى ورحمته يقتضيان ألا يفيض على عبده إلا مايتناسب مع استعداده وقابليته ، ومايعلم الحق أن فيه صلاح حاله ، وافق هواه أوخالفه . ومهما بلغت رتبة العبد فانه لايعلم يقينا مافيه الخير لنفسه : بل تراه يقدر الجيد وفق مايهوى وان كان شرا. ويتألم مما لايتفق وهواه وإن كان خـــيرا ، ولذلك نرى أن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه كان يدعو الله سبحانه تعليما لنا وتفويضا منه إليه قائلا : « اللهم أحينى ما علمت الحياة خيرا لى ، وتوفنى ما علمت الوفاة خيراً لى » ويقول - من وافقه ربه . وأثنى عليه نبيه بقوله : « ما سلكت فجا إلا وسلك الشيطان فجاغير فجك » وهو - أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه « لا أبالى أصبحت غنيا أم فقيرا ، فانى لا أدرى أيهما خير لى » فدعوى

معرفة الأصلح من العبد دليل على جهله ، إذ أنه لو نظر إلى الدنيا من حيث حقيقتها — وكان على بصيرة من دينه لعرف أن الغنى فيها لا يراد لذاته ، وإنما وجد الغنى ليكون وسيلة للشكر ، وكان الفقر ليكون وسيلة للصبر والشكر والصبر مطيتان توصلان المؤمن إلى قرب الله ورضائه ، ولا ينال العابد بالضرورة أيهما ركب .

ولكن من الناس من استولت الدنيا على قلبه جهلا ، لما فيها من زخوف وجاه ، فصارت له أمنية ، فيطلبها من الله عز وجل لينعم بما فيها من متاع قد يكون ضـــاراً به ، ولربه به عناية . فلم يعطه منها إلا ما يقيم به صلبه . وما يبلغه إلى الآخرة . فيظن العبد لجهله — كما أسلفنا . وما قام بنفسه من دعوى معرفة الأصلح ، ولعدم التفرقة بين الاضطرار والتمنى - أنه يدعو ولا تستجاب دعوته ، بينما أن الله عز وجل ما منعها عنه إلا لأنه يعلم من استعداده أنه انعم عليه وآتاه طلبته أعرض عنه ، وهو يريده قربا . وذلك شأن الكثير من الناس . الا من فهم عن الله : وعرف أن المنع قد يكون عين العطاء .

وقد كشف لنا الحق تبارك وتعالى عن هذه الحقيقة الكامنة فى نفوس البشر فقررها لنا فى كتابه قائلا « وأذا انعمنا على الانسان اعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » ويقول صلى الله عليه وسلم « إن الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمى احدكم مريضه من الطعام والشراب » وهنا يلح البعد فى الدعاء ولا يستجاب له وفق ما يهوى فيتشكك فى وعد ربه بالإجابة وهو خاطىء لا محالة . إذ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا آتاه الله بها إحدى ثلاث إما ان تعجل له دعوته ، وإما ان تدخر له يوم القيامة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها (قالوا : إذا نكثر يارسول الله قال الله اكثر) فالإجابة قطعا حاصلة . الا أنها ليست كما يهوى . ولذا يتمع الداعى

فى التشكك . فيكون ذلك قدحا فى بصيرته : لأنها لم تدرك بنورها ما ورد واخمادا لنور سريرته لما هو فيه من ضعف اليقين فى قول الله . وهنا يحمل قول المؤلف رضى الله عنه « إن تعين زمنه » على المبالغة ، بمعنى : حتى ولو تعين زمن وقوع المطلوب لاينبغى أن يتشكك فى وعد ربه ، فما بالك والاجابة فى الآية مطلقة ؟ وهذا مايقال للمبتدئين ، وما ينبغى أن يفهموه من قول المؤلف ، إذ أنه الذى يتناسب مع حالهم ومداركهم . أما السالكون إلى الله عز وجل الواصلون إلى مراتب الالهام والكشف فقد يوعد البعض منهم بوقوع أمر ما فى زمن معين ولا يقع ذلك الأمر فعلا ، وهنا يحتاج الأمر إلى بيان وتفصيل ، إذ أن الله لايخلف الميعاد . فأقول وبالله التوفيق :

إن السالكين إلى الله تعالى ينقسمون إلى أقسام متعددة ، ويمكن أن تنقسم على وجه إجمالى إلى قسمين : ملهمين ومكاشفين . والإلهام هو إلقاء صادق الخاطر فى القلب على سبيل التفهيم ، دليله قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى ومسلم « لقد كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون فان يك فى أمتى أحد فانه عمر » وكان ذلك معتقد الصدر الأول رضى الله عنهم ، حتى كتب عمر رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد : احفظوا ما تسمعون من المطيعين ، فانهم تنجلى لهم أمور صادقة . فأهل هذه المرتبة قد يوعد البعض منهم من طريق الإلهام بوقوع أمر ما فى زمن معين ، وقد يأتى هذا الوقت ولايقع الموعود فعلا ، ذلك لأن من الأمور ما يتوقف حصوله على شرط أو شروط ، ولم يتوفر ذلك الشرط فى وقت حلول ذلك الموعد فلا يقع . إذ المعلق على الشىء يعدم بانعدامه ، وليس هناك إلزام على الله أن يبين لعبده شرط حصول الموعود أبداً ، فان تشكك صاحب هذا الحال كان ذلك الشك قدحا فى بصيرته حقا ، إذ أن البصيرة نور تستبين به الأشياء على حقائقها ، فلو تم نوره لعلم أن ما وعد به من الامور المعلقة على شرط ، ولم يتشكك فى وعد ربه شكا يخمد منه نور سريرته .

أما الكشف : فهو إزالة الحجب المانعة للبصيرة من مشاهدة مكنون الغيب : ودليله قول الله تعالى . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، وقوله تعالى : « فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » وقد أخبر رسولنا ﷺ بكثير من الامور الغيبية وقد نطقت بذلك كتب السنة الصحيحة .

ومتى جاز ذلك للانبيا. جاز لغيرهم ممن اصطفاهم . وقد ظهرت آثار ذلك على كثير من الصحابة رضوان الله عليهم والصالحين من الأمة ومن ذلك ماروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه حيث قال لعائشة رضى الله عنها عندموته فى أمر النخل : إنما هما أخواك وأختاك بينما كانت لهارضى الله عنها أخت واحدة ، ولما أن وضعت زوجته وضعت بنتا ، فكأنه كان على علم بحقيقة الأمر . وماحدث من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما كان يخطب فشاهد أعداء الاسلام وهم يريدون أن يحيطوا بجيش ساريه ، فناداه وهو على منبره قائلا مرشدا . ياسارية الجبل ! ! وقد سمع النداء سارية وعمل بما أشار به أمير المؤمنين فانتصر ، ولم تمنع الحجب الكونية عمر من مشاهدة سارية على ما بينه وبين القائد المنتصر من بعد . ومن ذلك ما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه حيث قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه ، وكنت قد لقيت امرأة فى الطريق فنظرت اليها متأملا ، فقال عثمان رضى الله عنه : يدخل على أحدكم وأثر الزنى باد فى عينيه . فقلت أوحى بعد رسول الله ؟ فقال : لا ! ! ولكنها بصيرة وبرهان وفراسة صادقة . وذلك قول الصادق الأمين صلوات الله عليه : « اتقوا فراسة المؤمن ، فانه إنما ينظر بنور الله » ولانظن أن ذلك الحال يتعارض مع قول ربك : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت » فان النفس من حيث هى لاتعلم الغيب قطعا ، ولكنها تعلم الغيب وهو ما اتفق عليه أهل العلم جميعا ، وأقره الواقع والعقل ، فلا مشاحة فيه . ولا ينكر الكشف إلا من عميت بصيرته والعياذ بالله . وهو على مراتب :

اعلاها ـــ الكشف فى الأعيان الثابتة العلمية ، وهى حقائق الممكنات غير الداخلة تحت دائرة الجعل والإيجاد بعموم أحكامها ومظاهرها فى العلم : فالسالك الواصل إلى مقام كنت سمعه وبصره والمكاشف فى هذه الحضرة ـــ التى لا يعزب عنها مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ـــ قد يبتدى له وقوع أمر ما يتعلق به أو بغيره فى زمن ، فى معين ، ويرى فى ذلك وعدا ضمنيا فاذا جاء الوقت قد لا يقع فعلا، فيقع فى الشك ، لعدم وقوع الموعود ، ولو أنه رجع إلى العلم لتبين له أنه كوشف بوقوع الامر ولم ينكشف له شرطه . ألا ترى أيها السالك أن الله عز وجل قد فرض على الأمة المحمدية فى ليلة عروج نبيك صلى الله عليه وسلم خمسين صلاة ، كما ورد فى حديث البخارى حيث يقول صلوات الله عليه فى الحديث « ثم فرضت على خمسون صلاة ، فأقبلت حتى جئت إلى موسى فقال : ما صنعت ؟ قلت : فرضت على خمسون صلاة ، قال : أنا أعلم بالناس منك ، عالجت بنى اسرائيل أشد المعالجة وأن أمتك لا تطيق ذلك ، فارجع الى ربك فاسأله التخفيف فرجعت فسألته فجعلها أربعين ، ثم مثله ، فجعلها ثلاثين ، ثم مثله ، فجعلها عشرين ثم مثله فجعلها عشرا ، فاتيت موسى فقال مثله فجعلها خمسا ، فاتيت موسى فقال : ماصنعت ؟ قلت : جعلها خمسا ، فقال مثله فقلت : سلمت فنودى أنى قد أمضيت فريضتى ، وخففت عن عبادى ، وأجزى الحسنة عشرا » فإن تاملت فى الأمر تبين لك أن الخمسين لها مركز فى العلم ، والأربعين لها مركز فى العلم ، والثلاثين لها مركز فى العلم ، والعشرين لها مركز فى العلم ، والعشرة لها مركز فى العلم ، والخمسة لها مركز فى العلم . وكان التقاء موسى عليه وعلى نبينا السلام برسولنا صلى الله عليه وسلم وارجاعه النبى صلى الله عليه وسلم الى ربه يسأله التخفيف كان كل ذلك شرطا فى التخفيف عن الأمة فى كل مرة من هذه المرات كلها ، ولم يقع فى الكون فعلا ـ أى فى الوجود الخارجى ـ خمس صلوات فقط . فسبحان أرحم الراحمين . فلو أنك جئت بخمسة أفراد منكاشفين ، وكان كل واحد منهم أوسع كشفا من سابقه لحكم الأول بحكم تسلسل الأمر وضيق كشفه بانه يفرض على الأمة المحمدية خمسون صلاة يخفف منها عشر ، ولحكم الثانى بانه يخفف منها عشرون .

وبحكم الثالث بانه يخفف منها ثلاثون . ولحكم الرابع بانه يخفف منها أربعون . ولحكم الخامس بانه يخفف منها خمس وأربعون فيكون الأخير أوسعهم كشفا واصدقهم عند الخلق حكما ، وان كان كل منهم صادقا فى كشفه ، حيث كان لكل مرتبة من مراتب التخفيف مركز ثابت فى العلم . وسبحان من لايحيطون بعلمه الا بما شاء ، وهو أحكم الحاكمين . واذا فليحذر المرء التشكك فى الوعد ، حيث ان العلة من جانبه ، فالله سبحانه وتعالى لايخلف وعده أبدا . وفى هذه الحاله لايحمل قول المؤلف رضى الله عنه على المبالغة ، بل يحمل على بيان الواقع ، أى قد يكون هناك وعد وعلى ذلك لاينبغى التشكك لما ذكرنا . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . والله اعلم .